ذلك الرنين

صفحة من دفتر حياتي

بمحض إرادتي, بل بإصرارٍ شديدٍ استقلت من التدريس في أواخر ذلك العام, فلماذا يبكّيني صوت أول جرسٍ من المدرسة القريبة من بيتنا في أول يوم مدرسيٍّ في العام الّذي يليه؟ لماذا أشعرني بأّنني خارج المكان؟

لم أكن أظن أنني سأشعر بالحنين للمدرسة بهذه السرعة عندما أستقيل, وكيف لي أن أتوقع أن أحنَّ لعملٍ مارسته بالكاد لأربعة أعوام, وكرهت فيه أنه لا يترك لي لحظةً في وقت فراغي أقضيها في ممارسة عملٍ فكريٍّ آخر, فما يخلّفه التصحيح يستهلكه التحضير وما يخلّفه التحضير يستهلكه إعداد الوسائل, وعندما تأتي الإجازة بعد ذلك فإنها لا تصلح إلا للاستجمام. متى سأكتب؟ متى سأرسم؟ متى سألتقط كل تلك الصور الفوتوغرافية للسلالم القديمة, والزوايا الدافئة؟ متى سأمارس بعض هواياتي المرجأة؟ متى سأخرج كل الأشياء التي أشعر أن مخيلتي تكتظ بها؟ ربما لو لم تكن لديّ اهتمامات مرجأة منذ الفترة الجامعية لما شعرت وأنا أؤدي متعلقات هذه المهنة النبيلة وكأني فرس حكم عليها في عنفوانها بأن تربط في ساقية تدور بها في دوائر محدودة حول محور واحد.

غضضت البصر عن كلّ الأشياء التي أحبها في التدريس, وقدمت استقالتي. وضعتها أمام من يهمه الأمر وانطلقت مثقلةً بأشياء لولا أني كنت أعلم ما أريد بوضوح لردّتني لأسحب تلك الورقة وأعود أدراجي إلى محوري الذي أشعر بشبه انتماء إليه والذي لا يخلو من المتعة والجمال...

وريثما أجد وظيفةً أخرى لا تنازعني أمسياتي جلست ذات صباح أرسم. لم أكن أعلم أن الدراسة قد بدأت في ذلك اليوم ولم يكن ليعنيني لو علمت. أمامي الأوراق والأقلام والألوان التي كنت أتوق إليها زمن التدريس. الألوان يسيطر عليها الوردي الحالم والأبيض لأنني أنحاز لهما دائماً, ومن خارج الغرفة كانت تأتي موسيقى لطيفة تزيد من عذوبة الألوان واستمتاع بصري بمرآها, ومن ثم فقد كنت أعيش لحظاتٍ هنيئة إلى أن رنّ جرس المدرسة المجاورة.

لا أعلم لماذا غشِيَني شيءٌ من الحزن المفاجئ عندما سمعت ذلك الرنين وفاضت عيناي رغم إرادتي بأدمعٍ جعلتني أرى رسمتي مجرد مساحاتٍ لونيةٍ.. وهل خبرتَ ذلك النوع من البرد؟ إنه ليس ذلك البرد المألوف الذي قد يجعلك تلقي بشيءٍ من الملابس الصوفية فوق كتفيك, إنه البرد الداخلي المشوب بالإحساس بنوع مبهم من تأنيب الضمير والذي قد يشعر به من غادر القطيع ثم رآه من بعيد يستكمل حياته من دونه... بيد ان ذلك الرنين لم يوقظ مدرسة الأمس فقط وإنما أيقظ أيضاً جرس تلك المدرسة البعيدة في أعماقي.. تلك المدرسة التي ليس لها اسمٌ ولا عنوان.. لأنها ليست ماديّة الوجود...

يبدو أن في داخلي مدرسة تختلط فيها جميع المراحل وأكون فيها طالبةً مهما بلغت من العمر... مدرسة أكن لها شيئاً من المودة رغم العداء التقليديّ بين الطالب والمدرسة.. مدرسةٌ تلتصق بذاكرتي وتتطفل على أحلام نومي وتترجم مقلقاتي ومطامحي بطريقتها المدرسية الخاصة لتريَني رؤىً تقييميةً لحاضري؛ أوراق امتحاناتٍ أحاول الإجابة عنها.. حذاءً مدرسيّاً أبحث عنه لأنطلق به إلى المدرسة فلا أجده بسهولة.. سيارةً أنتظرها عند باب الجامعة لتُقلّني إلى البيت.. مواقفَ هزليةً ممتعةً كنت قد عايشت مثلها في المدارس والجامعات فتناسيتها فجاءتني بلباسٍ آخر, ومواقفَ أخرى كثيرةً, سعيدةً أحياناً وفاترةً أحياناً تربطها جميعاً ثيمة الجو المدرسيّ. ولكن أليست هذه هي المدرسة التي تسكن معظمنا لأنها تستحوذ على جزءٍ لا يستهان به من عمرنا؟ وذلك الرنين, أليس هو صوتها؟

جرس المدرسة يرنّ بشكلٍ متواصلٍ وجنون, فالطالبات لا يستجبن له بسهولة. كان ذلك الجرس الأول في اليوم المدرسيّ

الأول في عاميَ الأول كمدرسة. تلقّفَتْ أذناي رنينه بحماس وشوق لبدء العمل. لقد كان ذلك الرنين بمثابة طلقة بدء السباق, إلا أنه لم يكن مسابقةَ آخرين, وإنما مسابقةً لكل شيءٍ قد يعوق النجاح في هذه المهنة, هكذا كنا نشعر نحن المدرسات الجديدات.

كنا نحن المدرسات قد بدأنا الحضور قبلها بأسبوعين تقريباً, وكانت الأيام تبدو فارغةً قبل دوام الطالبات. كنا نذهب متأنقاتٍ ونجلس بملابسنا المنتقاة بعنايةٍ حول المكيف الوحيد الذي يعمل جيداً في غرفة المدرسات الواسعة, ونشرب الشاي ونثرثر حول كل شيء, فإذا مللنا الجلوس يمّمنا شطر مساحات الظلّ القليلة خارج الغرف التي تهب فيها نسماتِ الهواء المنعشةِ على سخونتها, فثرثرنا هناك ماشيات. ولكن ما إن نشعر بالملل جالساتٍ أو ماشياتٍ حتى نتوق إلى بدء العمل.

وها هو الرنين يأتي أخيراً إيذاناً ببدء يوم قد تظل ذكراه واضحةً في ذهني ما حييت. ها هي إشّارة البدء تنطلق مدويةً.. طويلةً - وإذ تستدعي ذكرى كل جرس سمعته مذ دخلت المدرسةَ طفلةً فهي أيضاً.. مُزمنةً!

ولأن ذلك كان أيضاً اليوم المدرسيَّ الأول لما يقرب من تسعين طفلة جديدة لا تستطيع ترجمة لغة الجرس فقد ازداد غضبه وجنونه, وازدادت رهبة التلميذات الصغيرات اللواتي يدخلن المدرسة بالزيّ المدرسيّ للمرة الأولى.

أعدادٌ كبيرةٌ من الصغيرات منتشرةٌ كالفَراش في الساحة التي تبدو شاسعةً بلا مبرر في أعينهن. بعضهنّ ظللن ملتصقاتٍ بأمهاتهنَّ وهنَّ يسمعن الجرس لا يصمت برهةً حتى ينطلق انطلاقةً ثانيةً أطول من التي سبقتها, وما إن شارف رنين الجرس على الانتهاء باكتمال الطوابير ونجحت الأمهات (اللاتي بقين إلى تلك اللحظة مع بناتهن) في التخلّص من قبضات صغيراتهنَّ ومغادرة المدرسة حتى انضمّ صوت بكاء الحناجر الصغيرة إلى مزيج تلك الضجة التي تكاد تصم الآذان..

ثم أخيراً وبعد وصلة رنين طالت حتى أصبحت مملةً مزعجةً مرهِقة, وكاد طولها يقارب النصف ساعة اكتملت الطوابير وصمت الجرس كليّةً تاركاً لمايكروفون الضابطة تولّي تعذيب الآذان من بعده, فأخذت هذه تُلقي بتعليمات المدرسة صائحةً بين الفينة والفينة بالفتيات اللاتي لم يُسكتهن الجرس.

استمعت لها الطالبات الأكبر سناً بشكل حذر إذ أخذن ينظرن إليها ويتحيَّنَّ الفرصة لمواصلة الثرثرة مع صديقاتهن مُختلِقاتٍ همهمة تعلو وتعلو إلى أن تصبح دمدمةً تستدعي المزيد من الصراخ من قِبل الضابطة. أما المستجدات فقد كن مشغولاتٍ بكفكفة أدمعهنَّ , وأجسامُهنَّ الضئيلة ما تزال ترتجف من كثرة البكاء.

كان عملي في القسم الإعداديّ لهذه المدرسة, وكان ذلك أول يوم مدرسيٍّ أرى فيه الطالبات كمدرسّة فعلية, لذلك فقد كُنت أنا نفسي بطريقةٍ ما طفلةً جديدةً يملؤها الحماس والفضول المهنيّ. وربما كان هذا الفضول أحد أسباب حبّي للتمشّي مع صديقاتي المدرسات في الطابق الأول حيث الصفوف الابتدائية. فطالبات الإعدادية والثانوية تعاملت معهن في فترة تدرُّبي على التدريس لذلك فقد كان فضولي موجهٌ نحو الصفوف الابتدائية, وبالتحديد للصّفّ الأول, ربما لما شعرته تجاههن من شفقةٍ عندما كنَّ يبكين صباح اليوم الأول, وربما كنت أريد أن أشحذ ذكريات الطفلة التي كُنتها من خلالهن. هناك, وأمام فصول الصف الأول الابتدائيّ بالذات يشعر المرء بين أفواج الطالبات أن العالم في منتهى الضآلة ومفعمٌ بالحيوية.

في ذلك اليوم الذي تذوقت فيه بعض الصغيرات عيّنةً من تبعات الحياة لأول مرة كنت أمشي مع صديقة من طاقم القسم الابتدائي تعرفت إليها أيام الثرثرة الطويلة قبل دوام الطالبات, فمررنا من أمام فصول الأول الابتدائيّ بعد أن وُزعت عليها التلميذات الجديدات بمدرّساتهن, وبعد أن هدأ الجميع, أو استسلم للأمر الواقع.

كانت تلك دقائقَ ما بين الحصة والحصة التي تترك فيها المدرسات الفصول فـ"تنثاع" الطالبات خارجها. فوجئت (أنا فقط) بعددٍ من التلميذات الصغيرات يركضن نحونا على التوالي ليبلغننا طلباتٍ وشكاوى غريبة. ثم تبعتنا مجموعةٌ منهنَّ مكونةٌ من طفلةٍ لديها شكوى ومعها فريقٌ مؤيدٌ وآخر معارض. جذبن أطراف ملابسنا المتأنقة والمكوية جيداً ليلفتن أنظارنا وحالما التفتنا إلى الخلف استقبلتنا عيونٌ ساذجةٌ مفتوحةٌ في فضول طفوليّ. وفي الحال بدأن في سرد قضيتهن بالتفصيل. كان علينا أن نصحبهن إلى فصلهن حيث الطرف الآخر للنزاع.

هناك كانت الطالبات منتشراتٍ كالجراد, لو كان الجراد مزعجاً لطيف المنظر ويرتدي زياً موحداً أزرق اللون ويعيش في مكانٍ تنبعث منه رائحة شطائر البيض بالمايونيز.. كنّ فوق الكراسي.. خلف الباب.. على حافة النافذة.. حالة من الفوضى لا مثيل

لها. ولم يبدُ أن دخول مدرّستين إلى الفصلِ قد غيّر شيئاً..

انحنيت لأكلم الطفلة المتهمة التي أخذنا إليها وفي الحال أمسكت هذه بخصلةٍ من شعري بعد أن أصبحت في متناول يدها وأخذت تداعبها وتلفها حول إصبعها وهي تشرح لي ما حدث وكأني أختٌ كبرى لها أو صديقةٌ حميمةٌ للعائلة منذ مائة عام. التفتّ إلى زميلتي التي كانت ترمقني بابتسامةٍ لطيفةٍ نصفها لي ونصفها عليّ وقلت لها:"لا أتصور أن تعليم هؤلاء نظام المدرسة وكيفية التعامل مع المدرسات سيكون أمراً سهلاً." فضحكت ضحكةَ مجرِّبةٍ وأخبرتني أن المدرّسات المتخصّصات في هذه المرحلة يعلّمن التلميذات الجديدات أنظمة المدرسة وسلوكيات التلميذ المطلوبة في أقلّ من أسبوع.

وبالفعل رأيت بنفسي كيف أنه بعد أيام قليلةٍ من بدء العام الدراسيِّ ترى الطالبات مدرّستهن فَي أول الممر فيسرعن إلى فصولهن ويجلسن بنظام على مقاعدهن. وما إن تدخل المدرّسة حتى يقفن في أدبٍ ليلقين إليها بتحية الصباح بنغمةٍ مطوطةٍ تستوعب سرعة أبطأ التلميذات. ورأيت كيف أصبحن يستجبن للجرس بأن يركضن بأقصى سرعة إلى الساحة وتمسك كل واحدة منهن بيد زميلةٍ لها ليصطففن اثنتين اثنتين في طوابير منتظمة.

شيءٌ عجيبٌ الإتيان بمخلوقاتٍ اعتادت التحليق في كل مكانٍ وبكل حريةٍ وتحويلهن إلى تلميذات مدرسةٍ في أيام قليلةٍ. عجيبٌ لأنني كنت أظن -أو ربما آمل- أن يكون الإنسانَ أقلّ قابليةٍ للتطويع. ولكني بتُّ أشعر الآن أن قابليته للتطويع في تلك السنّ قد تكون نعمةً عظيمة, فالعالم يعجّ بالشرور والجرائم والحروب بأشكالها وألوانها. هذا مع وجود قابلية الإنسان للتطويع في تلك السنّ الغضة وما بعدها فكيف يكون الحال بدونها؟

بعضهنَّ طبعاً يظلّ صعبَ القياد حتى في تلك السنِّ الغضة, مثل تلك الطالبة الطويلة السمراء التي رأيتها في تلك الأيام في آخرِ مكانٍ يمكن أن أتخيّلها فيه.

تُرك باب السطح مفتوحاً يوماً فرأيتها تمشي بطمأنينةٍ تامةٍ وبكل ثقةٍ على حافة الجدار المحيط بالسطح, أي على مستوى الطابق الثالث! بدا الوضع مخيفاً ونحن ننظر إليها من وسط الساحة, ترفرف ملابسها في الهواء وهي تمشي على الحافة وكأنها علمٌ بشريٌّ يعلن عن بدء العام الدراسيّ!

لم تستجب عندما أُمرت بأن تعود إلى الطابق الأرضي حيث فصلها. ولم تفكر في الهبوط إلا عندما صعدت إليها المشرفة بنفسها وأنزلتها بطريقةٍ ما ثم عنّفتها كما لم تُعنَّف قط, ثم أقفل بعدها باب السطح إلى الأبد.

أُخبرت فيما بعد أن هذه التلميذة تكاد تُفقِد مدرِّستَها عقلها, وأنها في اليوم السابق جعلت مدرِّستها المتلئة تركض خلفها لتعاقبها من أدنى الفصل إلى أقصاه عدة مراتٍ فلم تفلح في الوصول إليها, ولما أنهكت المدرسة المسكينة فجلست تلتقط أنفاسها على كرسيها الذي وضعته عمداً بجوار الباب, انسلّت الطالبة بطريقةٍ لولبيةٍ أو ربما زئبقيةٍ إلى الخارج من ذلك الباب ذاته, وتحت سمعها وبصرها, وانطلقت إلى الساحة لتواصل عدْوَها في الهواء الطلق, بينما أخذت الأولى ترمقها بلا حولٍ ولا قوة. وفي النهاية قررت -مكرهةً لا بطلة- أن تلغي فكرة عقابها لتعود إلى الفصل!

ضحكت زميلتي من دهشتي لسلوك الصغيرات

واستماعي بصبرٍ لشكاواهنّ, ونصحتني ألا أعبأ بهنَّ لأنهنّ سيتعودنَّ عليَّ ويُضجرنني بطلباتهنَّ وشكاواهنَّ التي تزيد على الشكاوى الموجهة لهيئة الأمم.

لم أستمع لتلك النصيحة طبعاً إذ كانت تتعارض بشدةٍ مع طبيعتي الميالة للاستماع للآخرين وخاصةً الآخرين الصغار. ومع ذلك فالنتائج لم تكن سلبيةً على الإطلاق.

لقد أصبحت الطالبات الصغيرات ينتظرنني في أماكن محددةٍ متوقعٌ مرور المدرّسات منها في الحضور والانصراف -حتى بعد أن بدأت الدراسةُ الفعلية, وانشغلتُ كُليّةً بتدريس فصولي وابتعدت عن فصولهن تماماً- وما إن يرونني حتى يندفعن نحوي ويقلن في بشاشةٍ "صباح الخير" أو "مع السلامة" ثم يركضن عائدات, مثلما يفعلن مع مدرّساتهنَّ تماماً. وقد يقدّمن لي أزهاراً. تتقدم الواحدة منهنَّ على استحياءٍ وتدسُّ وردةً في يدي ثم تركض لتقف بعيداً وتنظر إليَّ من هناك وهي تغطّي فمها بكلتي يديها وتضحك في مرحٍ شديدٍ وكأنها قدمت لي قنبلةً ستنفجر في وجهي في بضع ثوان.

عالمٌ من البراءة التامة التي تجعل طالبةً - كما سمعت- تقول لإحدى المدرّسات الحوامل إنه عيبٌ عليها أن تأتي إلى المدرسة "بقميص نوم", وأخرى تسأل مدرّستها بكل حسن نيةٍ لماذا فمها كبير! ليلى سألت الذئب سؤالاً مشابهاً, وأعتقد أن الذئب أكلها أو همَّ بأكلها بعد هذا السؤال مباشرةً إلا أن المدرّسة لا تستطيع أن تأكل الطالبة عندما تسأل أسئلةً وجيهةً كهذا السؤال, فإن أولياء أمر الطالبة حتماً سيتدخلون وستتفاقم المشكلة, وقد تؤكل المدرّسة نفسها! لذلك فهي تكتفي بتوبيخ الطالبة أو إعطائها درس في كيفية التعايش مع الآخرين حسب خلفيتها في علم النفس أو حسب مزاجها في ذلك اليوم. ثم لها مطلق الحرّية أن تعبّر عن استيائها لهذا الموقف كيف تشاء لصديقاتها المقربات.

ولكن على الرغم من براءة معظم الأطفال في هذه السنّ إلا انه توجد نفوسٌ ليست بريئةً تماماً مندسةً بين جموع الأطفال. نفوسٌ عدوانيةٌ صغيرةٌ تستعذب إيلام الآخرين.. بطرقٍ صغيرةٍ أيضاً.

صادفت مجموعةً من تلميذات الثاني الابتدائيّ تحيط بتلميذةٍ كانت تبكي بحرقةٍ وقد امتلأ وجهها رعباً. أخبرنني أن السبب في موجة الرعب تلك أن بعض الزميلات قد قلن لهن أن بالحمّام جنيٌّ مخيف. عجباً! ما الذي يفعله الجنيُّ هنا, ألم أتركه في المدرسة الثانوية؟

استغربت حقاً من هذه الإشاعة التي لا يُبليها الزمن. أذكر جنيّ الحمام هذا. عندما كنت طفلةً أخبرتني صديقةٌ لي بوجود جنيٍّ في حمامٍ مدرَستها مع أن مدرَستها تلك كانت تبعد كثيراً عن هذه المدرَسة. وعندما أصبحت في الثانوية, وهي أيضاً تبعد كثيراً عن المدرَستين سمعت أن بأحد حمامات المدرسة جنّيّ.

كانت توجد دورة مياهٍ شبه مهجورةٍ بجانب المرسم, وكانت الإشاعة تقول إن الحمام الذي بجانب المرسم يسكنه جنّيّ. وفي إحدى حصص الرسم كان مطلوبٌ منا الرسم باستخدام الألوان المائية. احتجت إلى غسل أواني خلط الألوان وملئها بالماء من جديدٍ وفوجئت بأن صنابير الماء في المرسم قد جفت, فاستأذنت المدرّسة وقصدت بالطبع أقربَ دورة مياهٍ إلى المرسم.

كنت قد نسيت كل شيءٍ عن تلك الإشاعةِ لأن طالبات الثانويةِ لديهنَّ عادةً ما هو أجدر بالمناقشةِ من هذه الفكرة الطفولية. ولكني لاحظت أنه طوال الفترةِ التي كنت أغسل فيها أوانيَ الخلط كانت النوافذ الصغيرةُ المتراصَّةُ بالأعلى تنفتح وتنغلق بشدةٍ محدثةً أصواتاً مزعجةً للغايةِ وكأن الرياح تتميزُ غيظاً. وحتى مزاليج الأبواب التي اصطفَّت جنباً إلى جنبٍ كانت تصدر من الداخل أصواتاً عاليةً كما لو كانت تتأرجح إلى الأعلى والأسفل بكل ما أوتِيَتْ من قوة. لحظتها لم أر أيَّ غرابةٍ في ذلك, فالرياح دائماً تصدر أصواتاً غاضبةً ودائماً تحرك النوافذ. وبعد أن غسلت الأوانيَ وملأتها بالماء بلا عجلةٍ, خرجت تاركةً الرياح الغاضبة تفعل

ما تشاء بالنوافذ والأبواب.

بعدها بأشهر ذكرَت البنات مرةً أخرى أنّ حمام المرسم "مسكون". لم أمِل إلى تصديق ذلك وإن بدأتُ أعتقدُ أنه لمن الغريب حقاً أن تحرّك الرياح حتى مزاليج الأبواب الحديدية الصغيرة والتي لا تكون عادةً مخلخلةً بهذه الصورة.. خفت قليلاً بأثر رجعيّ!

أمسكت بوجه الطفلة المرعوب بين يديَّ وبكل الطرق أخذت أحاول طمأنتها وإزالة هذه الفكرة من رأسها وإقناعها أن هذه ليست سوى إشاعة تتناقلها البنات من جيل إلى جيل, غير أنها ظلت تنظر إليَّ بعينين يملأهما الخوف والدموع. لا فائدة, ذلك الشعور الذي أغمد في أعماقها لم يكن ليزحزح بسهولة. أحياناً يتوجَّب علينا أن نعيش نصيبنا من اللحظات العصيبة قبل أن نضيف إلى معلوماتنا شيئاً عن الحياة.. هذه الحياة التي كثيراً ما تصادفنا فيها أشياء لم نترك لها ركناً في خيالنا.. ولكنها المدرسة.. نتعلم فيها ما نريد أن نتعلمه وما لا نريد.

ولكنّ معظم ما يتعلمه الصغار في المدارس يكون عادةً مما يراد لهم تعلّمه. عندما كنت أمرّ مع صديقاتي من أمام فصول طالبات الصف الأول والثاني الابتدائيين كنت أرى أحياناً جملاً أوليةً مكتوبةً على السبورة بخطٍ كبير يشغل مساحةً لا بأس بها, وتكون إحدى كلماتها مكتوبةً باللون الأحمر ومكررةً في نواحي أخرى من السبورة. وتنطلق الأصوات الحادة بالكلمة ترددها بحماس المرة تلو المرة.. إنها كلمةٌ جديدة.. انتصارٌ جديدٌ تخبر به التلميذات أمهاتهن.. نافذةٌ جديدةٌ على عالم الكلمات. ولكن ليست النوافذ فقط.. الأدراج أيضاً تنفتح عن قصص, إلا أن قصصها قديمة عادةً وأقل تفاؤلاً. فتحت درجاً بمكتب إحدى الإداريات لآخذ ورقة تخص العمل كما أخبرتني صاحبته فإذا بي بكيس بال سقطت منه مصاصات وأنواعٌ أخرى من الحلويات ذات الألوان الفاقعة. أخبرتني صاحبة المكتب أنه بضاعةٌ لإحدى عاملات النظافة أو الفراشات كما يُسمين اضطرت المديرة لمصادرتها مؤقتاً فنسيت في هذا الدرج بضع سنين وعاد لا أحد يتذكر تماماً لمن كانت.

تعاطفت مع تلك الفراشة المجهولة الهوية إذ كانت بضاعتها تثير الشفقة أكثر من الغضب. كانت من أرخص أنواع الحلويات. ما الذي كانت تجنيه منها؟ أيمكن أن يكون لمحتوى هذا الكيس المهترئ أيّ مردودٍ يستحق مغامرة بيعه خفية؟ هل هي متعة المغامرة بحدّ ذاتها؟ ربما, وربما كان هناك من هم بحاجة إلى تلك الحلويات والسكاكر لأنهن لا يستطعن الحصول على شيءٍ أفضل. هؤلاء عادةً يكُنَّ أصغر تلميذات المدارس أو أضعفهن. ذلك أنه يستعصي عليهن شق طريقهن وسط الزحام الشديد المكون من الأجساد المختلفة الأحجام والذي عندما ينفضّ تماماً وتظهر نوافذ المقصف كاملة تطل منها تلك الرؤوس الصغيرة إلى الداخل فتطلب أصنافاً من الأطعمة تكون كلها قد نفدت ولم يبق منها إلا رائحتها الشهية, فلا يكون لها ملجأ غير تلك البضاعة التي توفرها بعض عاملات النظافة, وكن يبعنها من حجرتهن أو من أماكن سرية بعد أن حظر عليهن البيع في المدارس, وما كان أسهل الوصول إلى تلك البضاعة - مع سرّية مقارّها- مقارنةً ببضاعة المقصف.

لا أعلم لماذا يتبادر إلى ذهني مفاهيم حادة مثل "الصراع من أجل البقاء" و"البقاء للأقوى" عندما يأتي ذكر المقصف المدرسيّ. ربما لأن هناك منذ أن كنت طفلة وإلى أن تركت التدريس وإلى الآن - كما قد علمت من بعض الصديقات في مجال التدريس- طالبات يأكلن ما يشتهين كل يوم, وهناك طالبات يعشن يومهن المدرسيّ على حلويات لا تكاد تغني من جوع. فمن تمتلك القوة الكافية لشق طريقها وسط الأجسام المتزاحمة وللاستيلاء على دور من يسبقنها والصراخ بطلبها للفت نظر البائعة عمن سواها, هي التي تحصل على ما تريد من الأطعمة الساخنة, ثم تتراجع وسط الزحام وهي تصلح من هندامها وتسحب كميها إلى الأسفل, ولا يبقى أمامها إلا أن تجلس في مكانٍ ما مع صديقاتها وتستمتع بوجبتها الشهية. أما اللواتي يعجزن عن خوض تلك المعارك اليومية الصغيرة أو يربأن بأنفسهن عنها فلا يحلمن بأكل أيٍّ من المعجنات الساخنة أو الساندويتشات ولذا فهن يختصرن الطريق فيذهبن لعاملات التنظيف.

وكذلك لا أعلم لماذا كان المقصف وما يزال - كما قد علمت- يبدو دائماً وكأنه مركز إغاثة لمنطقة منكوبة منذ أعوام, وكنت دائماً أتساءل في سري: لماذا؟!

هل هو القصور في توفير الأصناف المرغوبة من الأطعمة المدرسية ما يجعل الطلاب بنين وبنات يتصرفون بهذه الأنانية والبدائية, أم أن المدرسة تغفل دائماً دورها في تكوين المواطن المتحضّر الذي يحترم موقع غيره في الطابور, وحق الآخرين في الفرص المتاحة, وأهم من كل ذلك, آداب التعامل مع

الآخرين؟ ولو نجحت المدارس في غرس مبدأ احترام الآخرين وحقوقهم الذي يبدأ أمام المقصف - كأول محكٍ لهذا المبدأ- هل كنا يا ترى لنضطر إلى وضع كل هذه الرادارات والكاميرات في الشوارع لضبط نوع من الفوضى لا يسببه في رأيي إلا الأنانية وانعدام احترام حقوق الآخرين؟ العلم عند الله.

ولكن كشأن كثيرٍ من المؤسسات لجأت المدارس إلى إخفاء الأعراض الظاهرة من دون أن تعالج الأسباب الخفية, فقضت على نزعة الفرّاشات التجارية من دون أن تحلّ مشكلة الصراع اليومي أمام نافذة المقصف حتى انقطع بيعهن تماماً. وتولّى المقصف القيام بتقديم بدائلهن لصغار التلميذات بدلاً من أن يقدم بدائله هو التي تقضي بتنظيم طابوره وتوفير كميةٍ أكبر من المأكولات المرغوبة للحدّ من التدافع من أجلها. وهكذا أصبح يتولى توفير الحلويات للطالبات الأصغر حجماً أو الأضعف, ليس بشكلٍ سريٍّ للغاية, ومن أماكن لا تخطر على بالٍ كما كانت الفراشة تفعل في أيام تجارتها الأخيرة, وإنما من النافذة نفسها التي ما زلن لا يستطعن الوصول إليها إلا عندما تختفي المأكولات الساخنة, متمسكاً بقوةٍ بقانون "البقاء للأقوى" ومعززاً الأنانية وجدوى استخدام العضلات إلى النهاية..

ولكن من يعلم, قد يأتي اليوم الذي تغلق فيه الأدراج على حكاية تعزيز المقصف للأنانية والعضلات وتنفتح فيه نوافذ تطل على قصص أكثر حضارةً وإشراقاً.. مثل نوافذ الكلمات التي ترددها الصغيرات خلف المدرّسة بحماس...

وتكبر الفتيات الصغيرات وتزداد النوافذ الجديدة التي تنفتح أمامهن على عالم الكلمات وتتنوع, فعالم الكلمات خضمٌ لا نهاية له, فالإنسان ليس كائناً ناطقاً فحسب وإنما كائنٌ يثرثر بما لا يعد ولا يحصى من اللغات. وكل لغةٍ تأتي بآلاف الكلمات, وكل كلمةٍ يجب أن تلتصق بالذهن وتفهم وتلفظ بالشكل الصحيح لتكون نافذة مفتوحة... ومن ثم فهناك دائماً كلماتٌ تُردد.. وهكذا..

أخذت الطالبات ترددن الكلمات الجديدة لذلك اليوم بالصوت المدرسيّ المعتاد المكوَّن من مزيج الأصوات الخشنة والرقيقة الذي يجعل الصوتَ الجماعيَّ الناتج أشبه بصوت الصبيان قبيل سنّ البلوغ. لم تكن أولئك طالبات الابتدائية اللواتي كنَّ يُثرن فضولي المهنيّ في مستهلّ عملي وإلا لكان صوتهنَّ الجماعيّ أصغر وأكثر حدّة, ولم يكنّ طالباتي المراهقات اللواتي كنت أتولى تدريسهنَّ فقد كنت قد تركت التدريس, وإنما كنَّ طالبات طالباتي الجامعيات اللواتي أصبحت أشرف على تدريبهنَّ على تدريس الإنجليزية في المراحل الإعدادية والثانوية في آخر عودةٍ لي للمدارس قبل أن أفارقها نهائياً بعدها بعام.

جلست هناك أرقب الدرس فيما أخذت الطالبة المدرّسة تقرأ الكلمات كلمةً كلمةً لترددها الطالبات الفَتيّات بعد شرح معناها, ثم ليضعن كلاً منها في جملة. كلما انتهى دويّ ترديد كلمةٍ جاء دور الأخرى لترددد. وتنظر الطالبة المدرسة إلى دفترها لترى إن كانت قد استوفت كل الكلمات الجديدة .. هذه الكلمات التي نبذل قصارى جهدنا لغرسها في عقل الطالبة, لعلّ إحداها تكون يوماً تلك الفتاتة اللغوية التي ستجدها في متناول يدها عندما تحتاجها لاستكمال نظريةٍ علمية, أو مرافعةٍ مُسكِتة, أو قصيدةٍ رائعةٍ تقدم تفسيراً جميلاً لبعض ألغاز الكون... لعلّها تكون خيطاً في شراعٍ تبحر به نحو مستوىً إنسانيٍّ أكثر حضارةً...

ذلك هو الحلم الصغير المخبّأ في دفاتر المدرّسين وإن لم يعوه, فالمدرَسة تكاد تكون قائمةً ولو بشكلٍ جزئيّ على خلق

أفضل الظروف لاحتمالاتٍ مستقبلية, احتمالاتٍ لا نجرؤ على ألا نحسب حسابها ونسخّر لها كل طاقاتنا وإن وصلت نسبة احتمال خطئها إلى ٩٩,٩٪ في كثير من الأحيان, فالطالب في النهاية يظل دائماً أبداً "احتمالاً" لمواطنٍ مستقبليٍّ مرموق, إذا لم يحتج يوماً إلى كلّ ما يتعلمه في المدرسة لاستكمال اختراعاته وفتوحاته الفكرية, فسيحتاج إليه ليَعْبُر به إلى المرحلة التالية.. ومن يعلم, قد يبدع عندها...

من بيئة الاحتمالات خرجت.. وإلى بيئة الاحتمالات كانت لي عودة, وقد اختلف دوري. ومع أنه لا تفصل بين المدرسة التي خرجت منها طالبةً والمدرسة التي دخلتها مدرّسةً إلا بضع سنين قضيتها في الجامعة إلا إنني شعرت أن الفارق الزمنيّ بين دخولي المدرَسة طالبةً ودخولي إياها مدرسّةً يبلغ آلاف السنين.. ومع ذلك فلم أجد بعد هذه "الآلاف" من السنين أن المدارس قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه في السابق, فقد وجدت المدرَسة ما تزال قائمةً على الاحتمالات ذاتها, والمدرَّسة ما تزال حائرةً في أساليب العقاب المثلى, والجنّيّ ما يزال في الحمام والخميس ما يزال أجمل الأيام لأن وراءه الجمعة.

وجدت كل شيءٍ كعهدي به. حتى عندما سمعت إحدى الزميلات تتدخل في رسم طالبةٍ وتقول لها إنها يجب أن ترسم الرصيف قبل الرجل الواقف عليه تذكرت موقفاً قد لا يشبهه تماماً إلا إنه ذكّرني به بطريقةٍ أو بأخرى.

قرص نيوتن! أحضرته لنا مدرّسة العلوم يوماً ووضعته أمامنا ووقفت خلفه لتدير مقبضه وقالت لنا إن ألوان الطيف التي نراها عليه ستختفي عندما تديره بواسطة المقبض, وسيظهر بدلاً منها اللون الأبيض.

أدارت القرص. لم تكن تستطيع أن ترى واجهته وتدير مقبضه في الوقت ذاته لذا فقد كان عليها أن تعتمد على ما تعلمه من خصائص ذلك القرص, ولم تكن عضلاتها قويةً بما يكفي لتوفير سرعة الدوران التي تحول الألوان إلى اللون الأبيض, لذا فقد ظهر اللون البنّيّ بدلاً من اللون الأبيض فيما سألتنا هي عن اللون الذي نراه. قلنا جميعاً: بنّيّ! تضايقت وانطبع ضيقها بين حاجبيها وأدارت القرص طويلاً وقالت إن اللون الآن قد أصبح أبيض بالتأكيد, وسألتنا ما اللون الذي أصبحنا نراه فقلنا ثانية: بنّيّ. استفزتها إجابتنا ثانيةً فازداد ملمح الضيق في عينيها وضوحاً وأدارت القرص بسرعةٍ ظنّتها أكبر, وسألتنا مرةً ثالثةً فلم نقل لها إلا الحق ولا شيء غير الحق! قلنا لها بكل أمانةٍ إنه بنّيّ! صرخت فينا المدرّسة وواصلت إدارة القرص, ثم بصوتها الذي اعتراه التوتر والجهد ولاحت فيه بوادر الغضب سألتنا رابعةً عن اللون الذي أصبحنا نراه عليه.

كان اللون ما يزال بنّيّاً إلا اننا لم نقل لها ذلك. ربما خشينا غضبها أو أشفقنا على أعصابها التي كادت تفلت منها وعضلات ذراعها التي استهلكها القرص, وربما مللنا من ذلك الجزء من الدرس فأردنا أن ننهيه, لذا قلنا لها هذه المرة: أبيض.

أبيض.. لونٌ جميلٌ لم أره في ذلك اليوم على قرص نيوتن إلا انني أراه كثيراً وسط باقي الألوان في ذكرياتي عن المدارس.. فذكرياتي المدرسية طالبةً ومدرّسةً لها ألوان, وألوان كثيرة جداً, أكثر بكثيرٍ من ألوان لوحتي التي كنت أرسمها قبل أن يداهمني ذلك الرنين.

كما أن لها روائح! روائحَ كثيرةً جداً قد يكون أبرزها رائحة المحاة وأقلام الرصاص المبرية على التوّ, وورق الكتب, وأقلام اللوحة المغناطيسية. وأحب منها رائحة الحقائب المدرسية الجديدة في بداية العام الدراسي.

وأحنّ أشد الحنين إلى شذى تلك الزهرة البرية الرقيقة التي أطلقتُ عليها اسم "زهرة البراري الأليفة" في رواية "دنيانا" وأرسلت بطلي المهووس بالبيئة ليبحث عنها بعد أن اختفت تماماً من ساحات المدارس ومن كل مكانٍ آخر هنا..

أما أصوات ذكرياتي المدرسية فلا تعد ولا تحصى. الضحك من بينها بكل أنواعه.. الضحك حتى الدموع, الضحك المقتضب, الضحك المكتوم, الضحك الساخر, الضحك الهستيري.. ومع الضحك لا بد أن يأتي الهمس, ومن ورائه الفحيح, ثم الضجيج. وثمة بكاءٍ هناك وكثيرٍ من الصياح.

وهناك موسيقى فواصل المواد بأشرطة مناهج اللغة الإنجليزية, وصوت الطباشير أثناء الكتابة على السبورة.. ذلك الصوت الأليف الذي يُعلن بهدوءٍ عن تشكّل شيءٍ سيختفي بعد قليل إلا أنه سينير لنا جزءاً من الطريق قد لا يرى بالعين المجردة قبل أن يتساقط في النهايةِ رماداً أبيض..

وهناك صوت قلم الرصاص إذ يسقط من على المنضدة فيتدحرج بخفةٍ على الأرض متحدياً لحظة سكونٍ فرضتها هيبة الامتحان..

ثم إن هناك أصوات الطالبات المراهقات عندما تتحد, الرقيقةُ منها بالكبيرةِ لتكوّن صوتاً واحداً لا لون له ينطلق من النافذة أثناء ترديد الكلمات الجديدة.. صوتاً أزلياً واحداً لا يتغيّر في أذني مذ كان صوتي يشترك في تكوينه.. وما هذا إلا جزءاً مما استدعاه ذلك الرنين..

Delalkhalifa.com

جميع الصور المستخدمة هنا أخذت من مواقع مختلفة بالانترنت, وحقوقها محفوظة لأصحابها

دلال خليفة